4 أكتوبر 2025 ·

الدكتور محمد إبراهيم الزعبي... طبيب الثورة وباني الأمل

من إزرع إلى الشمال السوري... رحلة إيمان وعلم وإنسانية لا تنتهي

مقدمة

محمد إبراهيم الزعبي: سيمفونية الإيمان والعلم والعطاء

في زوايا مدينة إزرع القديمة، حيث تتشابك بساتين الزيتون مع أشعة الشمس الذهبية، وُلد نورٌ صغير اسمه محمد إبراهيم الزعبي، ولم يكن مجرد طفل، بل بذرة أمل على وشك أن تنمو لتصبح شجرة شامخة تحمل ثمار العلم والإيمان والعطاء.

منذ أولى خطواته، كان قلبه مع الله ومع الناس، وعقله مع العلم والمعرفة، وروحه تتنفس الخدمة والرحمة. في ملاعب المدينة، تعلم الصبر والتحدي، وفي مقاعد الدراسة ابتدأت بوادر الإبداع والقيادة، وفي كل نشاط رياضي أو ثقافي أو إنساني كان يصنع نغمة في سيمفونية حياته الملهمة.

هذه السيرة ليست مجرد سرد، بل آيات حيّة من حياة انسان جمع بين العلم والدين والعمل الصالح، لتصبح قصته دليلًا حيًا لكل من يسعى لبناء مجتمع أفضل وأمة قوية.

ستقرأون فيها كيف تحوّل الطفل النشيط إلى:

طبيب يؤمن أن العلاج أمانة، والطب رسالة، والإنسانية واجب مقدس.

مجاهد ينقل الحقيقة ويصون الحق ويواجه الظلم بصبر وعزم.

معلم وراعي للأجيال، يزرع المعرفة والقيم في القلوب كما يزرع المطر الحياة في الأرض القاحلة.

ستجدون في هذه الصفحات رحلة إنسانية كاملة، سيمفونية من الصبر، نغمات من العلم، ألحان من الإيمان، وإيقاعات من العطاء والرحمة.

رحلة تثبت أن الإنسان المؤمن والعامل الصالح قادر على تحويل الصعاب إلى نور، والمعاناة إلى أمل، والبعد إلى بناء الإنسان والمجتمع.

أهلاً بكم في هذه الرحلة، حيث كل فصل قصة، وكل صفحة درس، وكل لحظة إلهام للأجيال القادمة.

الفصل الأول

البذرة الأولى – ميلاد على أرض الزيتون

في قلب محافظة درعا، وبين بساتين الزيتون القديمة، وُلد عام 1970 الطفل محمد إبراهيم الزعبي، وكأن الأرض نفسها باركت ميلاده. لم يكن مجرد طفل عابر في أزقة إزرع، بل كان بذرة صغيرة على وشك أن تنمو وتصبح شجرة صلبة، تظلل من حولها بالعلم والعمل والفضيلة.

نشأ محمد في بيئة تحفز على النشاط والمبادرة؛ حيث لعبت أزقة المدينة وحواريها دور المدارس الأولى في تعليمه، ليس فقط القراءة والكتابة، بل الصبر، الشجاعة، وحب الخير للآخرين.

من لحظة دخول المدرسة الابتدائية، بدأ يظهر تميزه في النشاط الرياضي والثقافي والإنساني. وكان قلبه مع الناس قبل عقله مع الكتب، وعيناه تبحثان دائمًا عن فرصة لتقديم المساعدة، أو إسعاد طفل، أو مشاركة مسن في حكاية من حكايته.

في الملاعب الصغيرة وفي الصفوف الدراسية، تعلم دروسًا أكبر من أي مقرر:

تعلم أن القوة الحقيقية في القلب قبل الجسد.

وأن العطاء بلا انتظار مقابل هو روح الإنسانية.

وأن كل علم، مهما كان صغيرًا، يمكن أن يكون نورًا في حياة أحدهم.

كما بدأت تظهر في محمد الملامح الأولى لرؤيته المستقبلية: أن يكون الإنسان الذي يجمع بين العلم والعمل والدين، الذي لا ينظر فقط إلى نفسه، بل إلى مجتمعه وأمته. كما يقول الله تعالى:

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى"

هكذا، كانت طفولته في إزرع مدرسة حياة أولى، ومقدمة لرحلة طويلة من العلم والإيمان والخدمة الإنسانية. رحلة ستأخذه من شوارع المدينة الصغيرة إلى قاعات جامعة دمشق، ومن مختبرات الطب إلى ميادين الثورة، ومن الغربة إلى بناء الأمل في الشمال السوري، ثم العودة إلى أرضه ليترك أثرًا لا يُمحى.

الفصل الثاني

مقاعد العلم وبدايات الوعي – طفولة على طريق الدعوة

في مدينة إزرع الوادعة، حيث تتعانق شمس الجنوب مع زيتون الأرض الطيبة، خطا الطفل محمد إبراهيم الزعبي أولى خطواته نحو رحلة العلم والإيمان. لم تكن مقاعد المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية مجرد أماكن لتلقي الدروس، بل كانت مدارج تربية وتكوين، تصوغ شخصيته، وتفتح له أبوابًا نحو آفاق أرحب من مجرد حروف وكتب.

منذ نعومة أظفاره، لمع في عينيه بريق النشاط والحيوية. كان يشارك بجدٍ في حصص الرياضة، فيتعلم من الملعب ما لا يقل أهمية عما يتلقاه من الكتاب: الانضباط، الصبر، روح الفريق، وتقبّل الهزيمة قبل الفرح بالنصر. كل سباق كان درسًا في الثبات، وكل مباراة كانت حوارًا مع الإرادة، وكأن الرياضة عنده عبادة جسدٍ يكمل عبادة الروح.

لكن محمد لم يكن رياضيًا وحسب؛ فقد كان قلبه معلقًا بالثقافة والعمل الإنساني. شارك في الأنشطة المدرسية، في المسرح والندوات، في حلقات المطالعة والقراءة، وفي مبادرات صغيرة لخدمة زملائه وأهل بلدته. كانت بداياتٌ مبكرة لروحٍ آمنت أن العلم ليس أوراقًا تُحفظ، بل رسالة تُعاش: "العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر، والإيمان بلا بذل كالنهر بلا ماء".

وفي تلك السنوات، بدأ إشعاع إيمانه يلوح في الأفق. كان محمد يجد نفسه في حلقات الذكر، وفي دروس القرآن التي تحيي القلوب قبل أن تملأ العقول. تأمل في كتاب الله مبكرًا، ورأى في آياته طريقًا للنجاة. وفي قوله تعالى:

(وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

زادًا يرشده نحو البذل والعطاء.

كما عُرف بين زملائه بخلقه الرفيع وحبّه لمساعدة الآخرين. كان يسعى لنجدة المحتاج، يواسي الصغير، ويعطي من وقته للمشاركة في مبادرات مدرسية أو اجتماعية بسيطة، لكنها في حقيقتها كانت تدريبًا إلهيًا على طريقٍ طويل من خدمة الناس والدفاع عن المظلومين.

هكذا، كانت مقاعد الدراسة في إزرع أكثر من خشب ومسامير، كانت محرابًا لبناء شخصية متكاملة: عقلها للعلم، قلبها للإيمان، ويدها للعمل. هناك، بدأت البذور الأولى لشاب سيكبر ليكون طبيبًا يداوي الأجساد، ومجاهدًا يداوي جراح الأمة، ورائدًا يحمل همّ وطنه منذ صغره حتى شيبه.

الفصل الثالث

جامعة دمشق... ميلاد الطبيب المؤمن

حين وطأت أقدام محمد إبراهيم الزعبي حرم جامعة دمشق، لم يكن مجرد طالب يسعى لشهادة، بل كان رحّالة يبحث عن العلم والمعرفة، حاملاً في قلبه شعلة الإيمان والخدمة.

في كلية الطب البشري، واجه تحديات كبيرة: ساعات طويلة من الدراسة، مختبرات معقدة، وكتب لا تنتهي، لكنه كان يرى كل عقبة كفرصة لصقل مهاراته، وكل تجربة كدرس في الصبر والتحمل، مستذكرًا قول الله تعالى:

"وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ"

لم يكن محمد يكتفي بالكتب والمختبرات؛ فقد استمر نشاطه الرياضي والثقافي والإنساني:

شارك في تنظيم الفعاليات الثقافية والرياضية في الجامعة، مؤكدًا أن العلم يحتاج إلى روح وجسد سويّين.

كان يزور الطلاب المحتاجين ويدعمهم، ويشارك في مبادرات تطوعية صغيرة، متذكرًا أن الطب ليس فقط علاجًا للجسد، بل رسالة للإنسانية.

بدأ يطور علاقاته مع زملائه ليكون قدوة في الأخلاق والتواضع والمثابرة، محققًا توازنًا بين الدراسة والعمل الصالح.

وفي مختبرات الجامعة، لم يكن مجرد طالب، بل كان باحثًا صغيرًا يسعى لفهم أسرار الحياة والجسد البشري، وعيناه دائمًا تتطلعان إلى أن يكون الطب وسيلة لخدمة المجتمع.

هكذا، شكّل جامعته نقطة الانطلاق الأولى نحو التميز العلمي والانخراط الاجتماعي، ومهدت له الطريق لاحقًا ليصبح اختصاصيًا في الطب الشرعي، ناشطًا في خدمة الثورة، وبانيًا للمجتمعات الإنسانية.

وفي كل خطوة في الجامعة، كان محمد يثبت أنه طبيب مؤمن: يضع العلم في خدمة الإنسان، ويضع الإنسان في خدمة الحق.

هكذا، كانت جامعة دمشق مدرسة حياة حقيقية، لم تخرّج طبيبًا فحسب، بل رجلًا جمع بين العلم والدين والعمل الإنساني، ليبدأ بعدها رحلة طويلة من الإنجازات والتحديات التي ستصنع بصمة لا تُمحى في وطنه وأمته.

الفصل الرابع

اختصاص الطب الشرعي... رحلة التميز بين العلم والعدالة

بعد أن أنهى محمد إبراهيم الزعبي دراسته بكلية الطب البشري، بدأ مرحلة جديدة مليئة بالتحديات والتميز: مرحلة اختصاص الطب الشرعي. هنا، لم يكن التحدي فقط في مواجهة العلم المعقد، بل في مواجهة الحق والعدالة، حيث يصبح كل تقرير طبي، وكل تحليل، شاهدًا على الحقيقة.

حصل على شهادة الاختصاص في الطب الشرعي من وزارة الصحة السورية عام 2001، وبدأ يشارك في المؤتمرات المحلية والإقليمية والدولية، ليعرض خبراته، ويشارك في تطوير هذا المجال الحيوي. لم يكن هدفه فقط التقدم المهني، بل تحقيق العدالة، ونصرة المظلومين، وحفظ كرامة الإنسان.

خلال هذه المرحلة، أصبح محمد مثالًا للطبيب الذي يجمع بين العقل والقلب، بين العلم والإيمان:

كل حالة كان يعالجها أو يوثقها كانت تذكيرًا بأن العلم وسيلة للحق، لا مجرد وظيفة.

كل مشاركة في مؤتمر كانت فرصة لنقل خبرة بلده وتجربته الإنسانية، ولتعليم الآخرين أن الطب الشرعي ليس مجرد تشخيص، بل رسالة أخلاقية وإنسانية.

عمله في عيادته الخاصة منذ 1995 وحتى عام 2018 كان مختبرًا للرحمة والالتزام الإنساني، خاصة بعد انطلاق الثورة، حيث أصبح عمله تطوعيًا لخدمة المحتاجين والجرحى.

كما أصبح رئيسًا لقسم الطب الشرعي في مشفى درعا الوطني، وعضوًا في المجلس الأعلى لاختصاص الطب الشرعي، ليكون قائدًا علميًا وأخلاقيًا في مجاله.

هنا، تتجلى رؤية محمد في الجمع بين الطب والدين والعدالة:

العلم أداة للفهم،

الإيمان أداة للتوازن،

والعمل الصالح أداة لنصرة المظلوم وحفظ الكرامة.

من خلال هذه المرحلة، نرى كيف أن تخصصه لم يكن مجرد وظيفة، بل مهمة سامية في خدمة المجتمع، ورؤية متكاملة للإنسان والوطن والأمة.

كل تقرير، كل تحليل، وكل مشاركة علمية كانت نغمة في سيمفونية العدالة والرحمة التي رافقته طوال حياته.

الفصل الخامس

الثورة والانخراط الإنساني... بين الميدان والطبيب والمجاهد

حين اندلعت الثورة السورية المباركة من محافظة درعا بتاريخ 18.3.2011 كان محمد إبراهيم الزعبي من بين الأوائل الذين حملوا رسالة الحق والإنسانية في درعا، لم يكن مجرد طبيب يقدم العلاج، بل كان شاهدًا على الظلم، وناقلًا للحق، ومرشدًا للمصابين والجرحى.

شارك منذ اليوم الأول في توثيق الجرائم والمجازر، ومن أبرزها قضية الشهيد حمزة الخطيب، حيث عمل مع النشطاء الإعلاميين لنقل صور الشهداء والناجين للعالم. هذا الالتزام جعله هدفًا للأجهزة الأمنية، وتم اعتقاله ثلاث مرات، لكنه ظل صامدًا، مستمدًا القوة من قوله تعالى:

"وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ"

لم تتوقف مساهماته عند التوثيق، بل امتدت إلى الخدمة الطبية الميدانية:

ترك عمله في المشفى الرسمي وأهله ليكرّس جهده للمرضى والجرحى في النقاط الطبية والمشافي الميدانية.

ساهم في تأسيس مشفى الإحسان في الغارية الشرقية، ليصبح نموذجًا للرعاية الطبية في الريف الشرقي من درعا.

- كان مدير مكتب (سيما) الرابطة الطبية للمغتربين السوريين وهيئة حوران الإسلامية ثم الإنسانية ومشرف على المكتب الطبي في رابطة أهل حوران

شرف بالإشراف على دائرة الطب الشرعي في مديرية صحة درعا الحرة، وحافظ على دور الطب كأداة للعدالة والدفاع عن الإنسانية.

كما لم يغفل جانب التعليم والدعوة:

أشرف على الخيمة التعليمية في مخيمات اللجوء ودعم حلقات القرآن الكريم، ليبقى العلم والدين حاضرًا حتى في أصعب الظروف.

ساهم في دعم دور الأيتام وبناء أكثر من مسجد ومصلى، أبرزها مسجد عائشة، الذي يضم مكتبة عامة وسكن طلابي وأنشطة متعددة.

الغربة كانت جزءًا من المعركة، حيث هاجر إلى الشمال السوري بعد سيطرة النظام على الجنوب، تاركًا أهله وبيته، لكنه ظل ملتزمًا برسالته: بناء الإنسان ونهضة المجتمع، ونصرة المظلومين.

الفصل السادس

الغربة في الشمال السوري... بين المحنة والرسالة

عام 2018، وبعد أن سيطر النظام على الجنوب السوري، وجد الدكتور محمد إبراهيم الزعبي نفسه مضطرًا لمغادرة مدينته إزرع، تاركًا وراءه أهله وبيته وأرضه، بل وأصعب ما يمكن أن يتركه إنسان: عائلته.

رحل وحده نحو الشمال السوري، مثقلًا بالهموم، يتأرجح قلبه بين الشوق والوجع، خاصة بعد أن اعتُقلت زوجته وأفراد أسرته، وأفرج عنهم لاحقًا بشروط قاسية من الإقامة الجبرية والمراجعات الأمنية.

كانت الهجرة بالنسبة له تجربة عصيبة، لم يخفف من وطأتها إلا يقينه العميق بأن الثورة رسالة لا تموت، وبأن الأقدار لا تُسيّر المؤمن إلا نحو أبواب جديدة للعطاء. وهكذا تحوّلت محنة الغربة إلى منبر جديد لخدمة الدين والوطن والإنسان.

في الشمال السوري، لم يكن الدكتور الزعبي مجرد مهاجر يبحث عن مأوى، بل أصبح قائدًا علميًا وإداريًا ورمزًا تربويًا:

تولّى منصب رئيس مديرية الطب الشرعي في حكومة الإنقاذ، وكان له دور بارز في تطوير هذا القطاع الحساس، جامعًا بين العلم والدقة والأمانة الشرعية والقانونية.

شغل موقع رئيس لجنة المجلس الأعلى لاختصاص الطب الشرعي، ليثبت حضوره كمرجعية في هذا المجال، وليفتح آفاقًا أوسع لتطويره أكاديميًا وعمليًا.

عُيّن رئيسًا لدائرة الطب الشرعي في مديرية صحة حلب الحرة، مواصلاً رسالته المهنية رغم ضيق الإمكانات وقسوة الظروف.

أصبح عميدًا لكلية الطب البشري في جامعة الشمال الخاصة، واضعًا خبرته الأكاديمية في خدمة جيل جديد من الأطباء الذين حملوا الراية في زمنٍ استثنائي.

درّس في جامعة إدلب وجامعة حلب الحرة وجامعة النهضة، في كليات الطب البشري وطب الأسنان والصيدلة، ناشرًا علمه بين مئات الطلبة، ليكون لهم أبًا ومعلّمًا ومرشدًا.

لكن رسالته لم تتوقف عند الجوانب الأكاديمية والمهنية. فقد كان يؤمن أن بناء الإنسان لا يكتمل بالعلم وحده، بل يحتاج إلى إيمان يثبّت القلوب، ومشاريع تغرس الأمل في النفوس.

لذلك:

أطلق فكرة الخيمة التعليمية في المخيمات، حيث تحوّل النسيج البسيط من القماش إلى مدرسة تصنع الأمل.

دعم حلقات القرآن الكريم، مؤمنًا أن حفظ كتاب الله هو حفظ للهوية والروح في مواجهة ضياع المنافي.

ساهم في دعم دور الأيتام، وأشرف على بناء أكثر من مصلى ومسجد في الشمال، كان أهمها مسجد عائشة الذي لم يكن مجرد مكان للعبادة، بل مؤسسة متكاملة تضم سكنًا طلابيًا، مكتبة عامة، ونشاطات متنوعة ثقافية ودينية.

في تلك المرحلة، أثبت الدكتور محمد إبراهيم الزعبي أن الغربة لا تعني الانكسار، بل يمكن أن تكون منطلقًا جديدًا للبناء. فقد حمل معه همّ الثورة والعلم، ووزّع جهده بين قاعات الجامعات، ومكاتب الإدارة، وأروقة المساجد، ومخيمات النزوح.

لقد كان حضوره في الشمال شهادة حيّة على أن المؤمن العامل لا يحدّه مكان، وأن الرسالة الصادقة تثمر أينما زُرعت، حتى لو زُرعت في أرضٍ بعيدة، مليئة بالأشواك والتحديات

الفصل السابع

بين الثورة والتعليم... صوت لا يخبو

لم تكن الغربة بالنسبة إلى الدكتور محمد إبراهيم الزعبي فصلًا من فصول الانتظار، بل كانت ساحة أخرى تُكتب فيها السيرة. فحيثما حلّ، حمل معه هويته الثورية وواجبه الإنساني، ولم يرضَ أن يكون مجرد متفرج على ما يجري، بل بقي حاضرًا في قلب الأحداث، شاهدًا وفاعلًا وقائدًا.

في الميدان الثوري والسياسي

لم ينقطع عن الثورة السورية يومًا، بل ظل أحد أصواتها المخلصة. شارك في مؤتمرات ومجالس ثورية داخل الشمال السوري وخارجه، مسلطًا الضوء على قضايا المعتقلين، وفضح ممارسات النظام، ونقل معاناة الأهالي في درعا وحوران وسوريا عامة.

وكانت له مساهمات بارزة في اللقاءات الإعلامية والندوات الفكرية، حيث لم يكن صوته صوت طبيب فقط، بل صوت ثائر يحمل همّ وطنه في كل كلمة.

في التعليم العالي والعمل الأكاديمي

في موازاة نشاطه الثوري، واصل الدكتور الزعبي عمله في المسيرة التعليمية كأستاذ وأكاديمي، مؤمنًا أن الثورة لا تُبنى بالدم فقط، بل بالعلم أيضًا.

حاضر في الجامعات، وشارك في وضع مناهج أكاديمية مطوّرة.

أشرف على رسائل وأبحاث طلابية، فكان يزرع بذور العلم في أرضٍ أنهكها الحصار والقصف.

ترك بصمته واضحة كعميدٍ في جامعة الشمال الخاصة، حيث جمع بين الإدارة الرصينة والتواصل المباشر مع الطلبة، حريصًا على أن يكون أبًا قبل أن يكون مديرًا.

في المجتمع والإنسان

لم يقف عطاؤه عند حدود الجامعات والمناصب، بل امتد إلى مشاريع إنسانية واسعة:

دعم مبادرات تعليمية في المخيمات، إيمانًا منه أن خيمة صغيرة يمكن أن تُنبت عالمًا كبيرًا.

وقف إلى جانب الأيتام وأسر الشهداء، مؤكدًا أن الأمة لا تنهض إلا إذا حفظت دماء شهدائها ورعت أبناءهم.

أشرفت على بناء مساجد ومصليات، أهمها مسجد عائشة الذي أصبح مع الأيام مركز إشعاع روحي وثقافي.

في مواجهة الكوارث

وحين ضرب الزلزال المدمّر مناطق واسعة من الشمال السوري وتركيا، كان الدكتور محمد الزعبي في طليعة المشاركين في حملات الإغاثة. لم يكن عمله طبيًا فقط، بل كان يحمل بنفسه المواد الغذائية والأغطية، ويتنقل بين المخيمات والبلدات المتضررة، واضعًا علمه وخبرته وشخصيته في خدمة الناس، كما لو كان فردًا من كل عائلة منكوبة.

في المؤتمرات والفعاليات الدولية

تجاوز حضوره حدود الجغرافيا. شارك في فعاليات ومؤتمرات عُقدت في تركيا وخارجها، ناقش فيها قضايا العدالة الانتقالية، ودور الطب الشرعي في كشف الجرائم، وحقوق الإنسان في ظل الحرب. لقد كان حضوره مزيجًا من العلم والشهادة، إذ تحدث كخبيرٍ وكشاهدٍ على الجرائم في آنٍ واحد.

في هذه المرحلة، بدا واضحًا أن الدكتور محمد إبراهيم الزعبي لم يكن مجرد طبيب أو أكاديمي، بل جسرًا بين الثورة والمجتمع والعلم. جمع في شخصه أدوارًا عدة: طبيبًا يعالج، معلّمًا يربي، ثائرًا يهتف، وإغاثيًا يسند، وقائدًا ينظم.

لقد أثبت أن الثورة لم تنطفئ ما دام فيها رجال لا يخمدون، وأن الغربة لا تُطفئ جذوة من جعل رسالته أمانة بين يدي الله والتاريخ.

الفصل الثامن : البيت... آيات تتلى في محراب الحياة

لم يكن بيت الدكتور محمد إبراهيم الزعبي بيتاً عادياً؛ كان أقرب إلى مصحف مفتوح، كل فرد فيه صفحة ناطقة، وكل ابتلاء فيه تفسير حيّ لآية أو حديث.

لقد اجتمعت فيه مدرسة الصبر، محراب الدعاء، وميدان العلم والجهاد، حتى صار البيت ذاته آية من كتاب الصبر.

ريم... "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"

الابنة الكبرى، ريم، هي أول صفحة في هذا المصحف الأسري.

تخرّجت من كلية العلوم، فجمعت بين رقة الأنثى وصرامة الباحثة. كانت تشبه الدعاء الذي يخرج من قلب الوالد في ظلمة الليل: "اللهم بارك في أولادي."

وقفت إلى جانب أمها يوم غياب الأب، وأصبحت سكينة البيت وحافظة أسراره، كأنها "سورة الكهف" التي تقي البيت من فتن الزمان.

لقد جسّدت ريم معنى الآية:

"وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"

فكان العلم عندها عبادة، والنجاح جهاداً، والصبر طريقاً.

رغد... "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ"

أما رغد، الطبيبة القادمة، فهي كوكب مضيء في سماء الأسرة.

تتابع دراستها في السنة السادسة بكلية الطب البشري في جامعة دمشق، ساعية لأن تجمع بين شرف الطب وشرف خدمة الناس.

كانت رغد تسير في طرقات الجامعة رغم العيون الأمنية والمخاطر، متوكلة على الله، مستحضرة الآية:

"فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ"

لقد فهمت أن وعد الله بالنصر لا يكون إلا بصبر على الدرس كما هو صبر على البلاء.

هي الوعد المؤجل، لكنها أيضاً الدليل على أن العلم في بيوت الشهداء والمعتقلين لا ينطفئ أبداً.

حمزة... "وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ"

حمزة، الابن الوحيد، الطالب في الهندسة المعلوماتية، لم يكن مجرد شاب يدرس؛ بل كان أمانة الاسم والدم.

لقد جمع اسمه بين حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله، وحمزة الخطيب شهيد البراءة السورية.

كان حضوره في البيت كصوت التكبير في الصفوف الأولى، وكأنه يترجم الآية:

"وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ"

إيمانه كان هدوءاً، وصموده كان إيقاعاً، وعلمه كان وعداً بمستقبل يحمل القوة.

هو الطبل العميق في أوركسترا البيت، أساس الإيقاع وثبات المسيرة.

ماريا... "فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا"

وأما الصغيرة ماريا، فهي سورة خاصة في كتاب هذه العائلة.

تركها والدها طفلة في الثانية من عمرها، وعاد إليها بعد سبع سنوات ليجدها صبية نضجت قبل أوانها.

غيابها كان جرحاً، لكن عودتها كانت بشارة.

هي تجسيد لقول الله تعالى على لسان يعقوب:

"فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"

لقد حفظها الله من الفتن، وردها إلى أبيها لتكون بلسم قلبه وضياء بيته.

الزوجة... "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ"

ثم تأتي الزوجة الصابرة، التي حملت البيت وحدها حين غاب رفيق دربها، وتعرضت للاعتقال والإقامة الجبرية، لكنها لم تنكسر.

كانت كالأرض الصلبة تحت أقدام أبنائها، وكالسماء المظللة على قلوبهم.

جسّدت بصدق قول يعقوب عليه السلام:

"فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"

هي العامود الذي حمل الخيمة، واليد التي أمسكت بالمصباح، والصوت الذي يدعو في السحر: "اللهم اربط على قلوبنا."

الأب... "وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"

وأخيراً، في قلب هذا البيت يقف الأب، الدكتور محمد إبراهيم الزعبي، الإمام والمايسترو، القائد الذي جمع بين الطب والجهاد، بين المحراب والميدان، بين الكتاب والمشرط.

لقد كان بيته مصلّى، وأسرته جماعة، وهو إمامهم، يوزع عليهم الآيات: ريم تحفظ سورة العلم، رغد ترتّل آيات الصبر، حمزة يكبّر بآيات الجهاد، ماريا تبتسم كتسبيحة، والزوجة تدعو كدعاء الأنبياء.

لقد صار بيته ترجمة حية لآية جامعة:

"وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"

الخاتمة – البيت كآية لا تُنسى

هكذا، لم يكن البيت مجرد روابط دم، بل كان تلاوة مستمرة: كل فرد فيه آية، وكل ابتلاء تفسير، وكل يوم سورة جديدة.

بيتٌ صبر على الغياب والاعتقال والمنافي، لكنه ظل قائماً على الإيمان واليقين.

إنه بيت يذكّرنا أن الأسر لا تُبنى بالطين والحجارة، بل تُبنى بقول الله:

"إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"

الفصل التاسع

العودة إلى الجذور... مدير منطقة من جديد

سبع سنوات كاملة غاب فيها الدكتور محمد إبراهيم الزعبي عن مدينته، عن بيته وأرضه وأحبته. كانت كسبع شداد من البلاء والابتلاء، حمل خلالها هموم الثورة في الشمال السوري، وعاش الغربة بمرارتها الثقيلة، بعيدًا عن أسرته وأطفاله. لكنه عاد، عاد كما يعود الغيث إلى الأرض العطشى، حاملاً معه خبرة السنين، وتجربة الجهاد، ورسالةً أكبر من أي لقب أو منصب.

لحظة العودة

حين وطئت قدماه أرض إزرع من جديد، لم تكن العودة مجرد زيارةٍ عابرة، بل كانت ميلادًا ثانياً. عاد الطبيب الثائر إلى الجنوب السوري بعد التحرير، يملؤه شوقٌ عظيم لمدينته ولأهله، وحاملًا في قلبه أمانة أكبر: أن يكون واحدًا من بناة ما بعد الثورة، وأن يسهم في لملمة الجراح وإعادة الروح للمنطقة.

المسؤوليات الجديدة

لم تمر سوى أيام قليلة على عودته، حتى كان في مقدمة العاملين. يسعى لدعم المدارس والمراكز الطبية، ويشارك في اللجان المكلفة بمتابعة الوضع العام في الجنوب السوري.

ثم كُلّف بمسؤوليات كبرى، كان أبرزها:

مدير منطقة إزرع الإدارية: ليكون في قلب القرار المحلي، ساعيًا إلى تطوير الواقع الخدمي والتربوي والدعوي.

نقيب أطباء درعا: مسؤولية تضيف إلى رصيده المهني والوطني، جامعًا بين همّ المهنة ورسالة الثورة.

عطاء ممتد

لم يتوقف نشاطه عند الإدارة الرسمية، بل ظل حاضرًا في كل مجال:

دعم حلقات القرآن الكريم، ورعاية المبادرات الشبابية الدعوية.

متابعة طلابه الذين تركهم في الشمال السوري، وإسنادهم علميًا وأكاديميًا.

الإشراف على حملات التشجير، وافتتاح أول حديقة عامة صغيرة في المدينة، إيمانًا منه أن الحياة تستحق أن تُزهر من جديد بعد كل دمار.

افتتاح أول صالة عامة في مسجد عمر، لتكون ملتقى لكافة النشاطات والفعاليات في المدينة.

صوت الجنوب

في كل نشاط، ظل صوته هو صوت الجنوب السوري: صوت الطبيب الذي يجمع بين العلم والإيمان، صوت الثائر الذي لم يخن دماء الشهداء، وصوت الإداري الذي يرى أن المؤسسات هي الطريق إلى النهضة.

لقد برهن أن العودة لم تكن نهاية الرحلة، بل كانت بداية فصل جديد من ملحمة البقاء والصمود.

الفصل العاشر

البحث العلمي، المؤلفات، والرؤية المستقبلية... رسالة للأجيال القادمة

حين نصل إلى هذا الفصل الأخير، ندرك أن هذه السيرة ليست مجرد حكاية شخص، بل ملحمة علم وإيمان وعطاء مستمر.

الدكتور محمد إبراهيم الزعبي جمع بين الطب، الثورة، التعليم، والدعوة، ليصنع نموذجًا حيًّا للرجل الذي يضع العلم في خدمة الإنسان، والإيمان في قلب كل عمل، والعمل الصالح في كل خطوة.

البحث العلمي... العلم كوسيلة للحق

أعد الدكتور محمد بحوثًا علمية منشورة في مجلات عالمية محكمة، شارك فيها المعرفة مع العالم، وأثبت أن العلم أداة للحق والخدمة الإنسانية.

شارك في المؤتمرات والندوات العلمية، ناقلًا خبراته، ومُلهمًا الآخرين بأن الطب والمعرفة يمكن أن يكونا وسيلة لنصرة المظلوم وإحداث فرق حقيقي.

حاز على دبلوم في التدريب الطبي المهني من معهد معتمد في مصر، ليعزز خبرته العلمية ويربطها بأحدث المناهج التدريبية.

حصل على شهادة TOT، ليصبح مدرّبًا معتمدًا لدى أكثر من منظمة في الشمال السوري، وينقل خبراته للأطباء والمتطوعين والطلاب.

عمل مدرّبًا ومحاضرًا في ورش عمل ومؤتمرات محلية ودولية، ليزرع في المتدربين ليس فقط مهارة مهنية، بل أمانة أخلاقية ورسالة إنسانية.

المؤلفات... سرد التجربة الإنسانية

ألف كتابه الأول "ذكريات مهاجر"، الذي يحكي الخواطر والتجارب الإنسانية والثورية، ويزرع في النفوس قيم الصبر والشجاعة وحب الوطن.

يعمل حاليًا على كتابه الثاني "مدخل في الطب الشرعي والعلوم الجنائية"، ليكون مرجعًا علميًا متكاملًا للأجيال القادمة، يجمع بين العلم والدين، بين المعرفة والضمير الإنساني.

رؤية المستقبل... بناء الإنسان والمجتمع

تجهيز صالات عامة، مساجد، مدارس، ومراكز طلابية، لتكون بيئة حاضنة للعلم والعمل الصالح.

إعداد مشاريع تربوية، دعوية، وخدمية لضمان أن القيم التي يؤمن بها لا تموت، وأن الأجيال القادمة تحافظ على الشعلة وتواصل المسيرة.

بناء علاقات مع منظمات وشخصيات محلية ودولية، لتعزيز استدامة المشاريع، وضمان أن كل عمل صالح يبقى أثره حاضرًا في المجتمع.

الخاتمة

"مسك الختام... حين تتحول السيرة إلى رسالة"

الحمد لله الذي أكرمنا بأن نكتب ونتأمل في سيرةٍ ليست كسائر السير، بل في ملحمةٍ تُشبه في تفاصيلها سورةً طويلة من كتاب الله، تتوزع آياتها بين الطفولة والشباب، بين الصبر والجهاد، بين العلم واليقين.

لقد عرفنا الدكتور محمد إبراهيم الزعبي طفلًا في أزقة إزرع، وشابًا على مقاعد دمشق، وطبيبًا في مشافي درعا، وثائرًا في ساحات الحرية، ومعتقلًا في أقبية الظلم، ومهاجرًا في الشمال السوري، ثم عائدًا إلى مسقط رأسه بعد سبع سنوات من الغياب.

رأيناه لا ينكسر أمام السجن، ولا يضعف أمام الغربة، ولا يتراجع أمام كثرة التحديات، بل كان في كل فصلٍ من فصول حياته شمعةً تُضيء وشجرةً تُثمر وصوتًا لا يخبو.

إنها سيرة رجلٍ لم يكن لنفسه فقط، بل لأمته كلها. سيرة طبيبٍ جمع مشرط الطب وراية الثورة في يدٍ واحدة. سيرة قائدٍ فهمَ أن المؤسسات هي الطريق إلى النهضة، وأن بناء الإنسان أهم من بناء الحجر، وأن الأوطان لا تُحرر بالبنادق وحدها، بل تُحرر بالوعي والعدل والرحمة.

لقد ترك وراءه آثارًا تشهد له:

طلابًا في الجامعات، يحملون علمه وأمانته.

أيتامًا رعاه، ليكبروا وهم يحملون في قلوبهم دعاءً له.

مساجد ومشاريع بناها، لتبقى منارات هدى.

أبحاثًا وكتبًا ستُقرأ بعد رحيله، لتخلد فكره ورسالة قلمه.

أيها الأحبة... إننا حين نقرأ هذه السيرة، لا نقرأ رجلًا من لحم ودم فقط، بل نقرأ صورة من صور الأمة الحية. نقرأ كيف يمكن أن يكون الإنسان عبدًا لله، صادقًا مع وطنه، أمينًا مع شعبه، ثابتًا على الحق، عاملًا في ميادين الحياة كلها.

فليكن لنا في هذه السيرة عبرةٌ وسراج:

عبرة في الثبات عند المحن.

وسراج في الجهاد بالعلم والعمل.

وبوصلة نحو نهضة الأمة التي حلم بها الدكتور محمد إبراهيم الزعبي وما زال يعمل لها.

إنها ليست نهاية سيرة، بل بداية رسالة. رسالة تقول لكل قارئ:

"كن أنت... كما كان هو: طبيبًا يداوي، ثائرًا يواجه، مؤمنًا يصبر، ومصلحًا يبني."

وفي الختام، نترك لكم كلماته هو، لتكون مسك السيرة وخاتمة الرسالة:

"أنا بشر أخطئ وأصيب، نقبل النقد البنّاء ونعتذر في حال الخطأ، لكنني عبدٌ لله سخّرني لخدمة عباده. غايتي أن ألقى الله وهو راضٍ عني، وجبيني يتصبب عرقًا في خدمة الدين والعباد والبلاد."

{وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى}.

ملاحظة الصورة المرفقة هي للدكتور محمد ابراهيم الزعبي

الدكتور محمد الزعبي

١٩٣ ١٢٠ ٢